وادي الظلال

الجزء الأول

الفصل السابع

صوت رهيب بعد موهن من الليل، وتلته أصوات وأرعدت في فراشي.. انه صوت عائدة بنت جيراننا.. ماذا دهاها؟

لبكة وضجيج في الطابق الأعلى وتداولت خطوات تخـب علـى الـسلالم.. فنفضت عني اللحاف، وهرعت الى غرفة أمي وصوتي يرتجف انفعالا:

- ماما.. ماما!.. ليتني أدري ما انتاب جيراننا!

وأصخت أمي قليلا، وكان والدي مستغرقا بالنوم.. ودوت صـيحات الفتـاة تستغيث فتركت فراشها:

- أية مصيبة نزلت بهم؟

وتعطّفت بملاءة.. وحاولت أن أصطحبها ولكنها منعتني.. وبقيت على جمـر وقد لزمت الباب فسمعت صريف الباب المجاور.. ورأيت شبحا أعتمه الليل فلـم أتبينه يحاول الخروج فهتفت:

- من؟ هل أنت كمال؟ فأجاب:

- أنا أخوه.. فسألته:

- بالله أخبرني، ما بها عائدة؟ ألا تسمح لي بالدخول فأراها؟

- أنت في غنى عن رؤياها يا سلمى لقد أصابها رئي من الجن..

- رباه! وكيف حدث هذا؟ كيف يصيبها رئي من الجن؟

- سلمى انني في عجالة لآتي بشيخ آخر معروف، ولا أسـتطيع أن أطيل الحديث.. ان الشيخ الذي أحضرناه يقول بأن السبب في هذا أنهـا رمت بقشرة بطيخ كبيرة الى الحديقة، فأصابت طفلا من الجن في مقتل.. فجنّت أمه عليه وأخذت تعذبها الآن بأقسى ألوان العذاب..

واستوجف قلبي:

- دعني أراها انني لا أخاف..

- على رسلك.. ها أنذا تركت لك الباب مفتوحا..

و رحت أترسل في صعودي في الحلكة، وأنا نهب للخوف وحب الإستطلاع.. واختلست خطواتي الى غرفة نوم الفتاة فرأيته مقفلا، والغرفة مضاءة.. فلزمت النافذة.. وهناك رأيتها.. كانت عائدة هادئة في فراشها قرب النافذة وابتسمت حين رأتني..

لم تكن عائدة فتاة جميلة، ولكنها دمثة مطيعة.. أما حينها فكانت احدى الأعاجيب لما كتب على وجهها من آيات قرآنية وعبارات غامضة المعنى.. وكان في الغرفة بعض من إخوتها لأمها وزوج أمها.. والشيخ.. وكان ساجداً على الأرض وقد ازدمل بمئزر أبيض وبيده سوط.. وفجأة غربت عينا الفتاة وامتقع لونها وانسدحت تضرب بقدميها الهواء وتصيح وقد عدت طورها:

- أخرجوها!.. انها هناك.. تريد أن تقتلني.. انه يحمل سكينا يريد أن يقتلني.. ألا؟.. آه أنظروا ماذا فعل بي! ثم استوت محتفزة للهجوم، فاندفع اليها زوج أمها يمنعها وهي في سورتها.. وكان الشيخ قد انتهى من سجدته، فأهوى عليها بالسوط يمشقها ويصيح بما خلع له قلبي، وقد أعياني أن أدرك هذه المعميات ورحت أرتجف كقشة في مهب الريح:

- ان كنت يهوديا فاخرج باسم موسى، وان كنت نصرانيا فاخرج باسم عيسى، وان كنت مسلما فاخرج باسم محمد، وان كنت مشركا فاخرج باسم من تقدس بقدرة الله العلي العظيم! وأخذ يتمتم ويحوقل، ولكن الفتاة كانت سادرة في هذيانها وجنونها.. ولم أشعر الاّ وقد توافد بعض النسوة المحتجبات، واحتشدن قرب النافذة من أقارب الفتاة والجيران، بينما كان صوت أمها يسمع قي انتحابه في الغرفة المجاورة ونسوة يهدئنها..

وانتهزت إحدى االنسوة فرصة وضع عائدة وراحت تسألها عن سرقة لها لما يكتشف مرتكبها.. فلكزتها أخرى بجانبها:

- أجلي الأمر الى فرصة أخرى.. ان في الوقت متسعا، ولن يتركها المـس سريعا.. وراحت أخرى تهمس:

- هل تستطيع أن تخبر من السارق؟ فأجابت الأولى:

- طبعا ان الجن لا يكذبون.. وهم يتكلّمون على لسانها الآن..

- ولكن كيف حدث ما حدث؟

- انها لم تقل دستور.. ليصلحها الله.. ما كان يجب أن تقذف بشيء في العتمة دون أن تقول دستور فتحتاط بذلك من أذية الجن.. كم كنت أنبهها، ولكنها صغيرة وكثيرا ما تنسى..

وذهلت واستبد بي الرعب.. انني نفسي لم أنبس بتلك الكلمة في حيـاتي ولا سمعت أحدا من أفراد عائلتي يفعل.. ان عالما عجيبا من الأشباح المؤذية المخيفة المترصدة لبني الإنسان تفتح أبوابها دفعة واحدة لتغرقني.. انني أرى وأسمع أشياء غريبة ولا أستطيع أن أكذّب عيني وأذني.. عائدة لا تزال في هذيانها، والأشـباح تطاردها، وتعذّبها فتصيح بما يفتت الأكباد.. وكلما زاد صـياحها لفحهـا الـشيخ بالسوط ليخرج الجن منها.. وأرهفت سمعي لما تتحدث به النـسوة قربـي مـن قصص مرعبة، فالأرض خافية بالجن والمنازل معمورة بهم وكل فرد في الدنيا له قرينة منهم.. ولكنني طردت مخاوفي حين علمت أنها مرصودة لا يمكنها الأذية.. أما الآن فانها تعود بكل بشاعتها لتضطهد زميلتي وابنة جيراني..

ولما انسحبت الى المنزل قبل أن تعلم والدتي بوجودي، كنت انـسانا آخـر ركبته الوساوس.. ألعوبة بأيدي الهواجس أردد كلمـة دسـتور مئـات المـرات ليحفظني الله من شر الشياطين والأرواح العابثة في الظلام فلا ينقذني مما دهـاني منقذ، ولا أجد لغمرتي انجلاء..

كانت والدتي حريصة أن لا تسمح لي ولإخوتي بزيارة الجيـران، وفـسرت الأمر بأن الفتاة مريضة موجعة وأنها ذاهبة للإستشفاء. ولم تدر أي مركب خوف قد استفحل في نفسي.. وفي ليلة انقطع فيها التيار الكهربائي طلـب منـي عبـد الرحمن أن آتيه بكوب ماء وهو ساهر يراجع حساباته.. وكان المطـبخ مـستفردا فأبيت.. واحتد غاضبا من تصرفي ولكنني بقيت على إصراري.. وانهالت علـي

كلمات التأنيب من أمي وأبي، ونعت بسوء الخلق والكسل والعقوق.. ولكننـي لـم أتحرك من مكاني ودموعي تجري وأنا أحدق بلهب الشمعة المتذبذب.. لقد دمـس عليهم السر في تصرفي.. وما جرؤت أن أقـول لهـم أننـي أخـاف.. خـشيت الإستخفاف والهزء بأحاسيسي، وانطويت على مشاعري يساء فهمي فلا أجد مـا أدافع به عن نفسي.. وطاردتني الأشباح في أحلامي.. فأحاول الخـلاص بإلقـاء نفسي في البحر، ولكن البحر يتحول الى جهاد.. وأحاول الطيـران ولكننـي أدفّ بجناح مهيض.. ويستبد بي الظمأ الى الحنان، فما أكاد أحاول كـشف سـريرتي لوالدتي حتى أجفل وتعتريني هيبة مما أنا مقدمة عليه..

وتنازعتني عواطف جديدة.. وانبثق نور خلال الظلمات.. قلبي يريد أن يحب ويحب.. والتفت حولي فلم أشاهد أحدا.. فخطيبي يضايقني، بل أكبت له حقـدا، اذ بسببه حرمت من بعثة الى لندن.. فعشقت أبطال الروايات، وعشقت أبطال الأفلام القليلة التي أتيح لي أن أشاهدها.. همسوا لي بـأرقّ وأعـذب ألحـان الهـوى.. أطياف.. أطياف حبيبة ترد عني عاديات الأرواح الشريرة..

وتجاذبني الجميع.. وجعلوا من روحي سكنا غاصا بالصور والأخيلة.. وكـم أصغيت بلهفة وإعجاب الى زميلاتـي فـي معهـد الخياطـة والموسـيقى عـن مغامراتهن.. كنت مستودع سر لهن لما لمسن في من تكتم وحسن رأي.. ورحت أقارن نفسي بهن، انني أتفوق عليهن في كثير، ولكنني طفلة في شـؤون الحـب، وهن ناضجات!.. وكم اشتاقت نفسي لو أسمع من يقول أو يكتب لي "حبيبتي".. يا للفظة الرائعة المحاطة بكل فتنة وسحر وجمال.. يا للظلال الوارفة التي لم أتفيـأ بها من وقدة الشوق للمجهول بعد.. انني ولا شك سأتظاهر بالغضب وأعنّف قائلها أو كاتبها، ولكنني سأكون جذلة في قرارة نفسي.. سعيدة فوق السعادة أنني أسـكن قلبا يحبني.. ولكن واأسفاه تمر الأيام ولا أثير انتباه رجل من الرجال..

أترى علم الناس بأنني مخطوبة منذ الصغر يبعد الأنظار عني؟

وكم من ليلة أكببت فيه على عودي أستجديه الألحان فيبخل بها، والى أوراقي أحاول رسم مشاعري فتستعصي علي، فما من شيء كفاء لما يختلج في خاطري.. ويبدو كل لحن وكل صورة متسولا هزيلا أمام ثروة أحاسيسي.. فما يراني أحد الاّ

متهلّلة العين نزقة، مكبوتة الجنان شاردة.. ولا أقوى على أن أعزب نفسي عمـا تهوى ولا أنا مبصرة ومضة أمل في تحقيق ذاتي..

* * *